

رثاء المدن بالشعر العربي : دراسة جمالية
Lamenting Cities in Arabic Poetry: An Aesthetic Study

Dr. Lubna Farah

Assistant Professor Translation & Interpretation, NUML, Islamabad

Dr. Khushbakhsh Alia

Visiting Lecturer, The Women University, Multan

Abstract

Lamentation is one of the purposes of ancient Arabic poetry, where we see the art of the ignorant people and this art moved from them to other Islamic ages, where we see poets added what they distinguished in lamenting their dear cities and their kingdoms, where poets did not move away from using rhetorical purposes as a means to show their suffering, because it is a purpose of The truest poetic purposes, as it embodies the human feeling and has sincere affection towards the one who is said about him. Lamentation is based on a characteristic which is the praise of the dead or the collapsed cities, and mentioning his good qualities and qualities that embody his image in the reader. Lamentation is an art linked to daily life and lived reality, since life is full of wars and the consequent loss of relatives and property. War is the main gesture in this art, as it gives the poet connotations of heroism, the experience of death, and the usurped right.

Keywords: Elegy poetry, Cities, lamentation, feelings

المقدمة

الرثاء من أغراض الشعر العربي القديم حيث نرى الفن كان لدى الجاهليين وانتقل هذا الفن منهم إلى العصور الإسلامية الأخرى، حيث نرى الشعراء أضافوا ما تميزوا به في رثاء مدنها العزيزة وممالكهم، حيث لم يبتعد الشعراء في استخدام الأغراض البلاغية كوسيلة لإظهار معاناتهم، وذلك لأنه غرض من أصدق الأغراض الشعرية حيث أنه يجسد الشعور الإنساني وتكون فيه العاطفة الصادقة تجاه من



يقال عنه، الرثاء قائم على خصيصة وهي مدح الميت أو المدن المنهدمة وذكر خصاله الحميدة وصفاتها التي تجسد صورتها لدى القارئ. الرثاء فن مرتبط بالحياة اليومية والواقع المعاش بما أن الحياة ملائمة بالحروب وما يترتب عليها من فقدان الأقرباء والممتلكات. الحرب تكون هي البادرة الأساسية في هذه الفن، حيث تعطي الشاعر مدلولات تدل على البطولة وتجربة الموت والحق المغصوب.

تساؤلات البحث

ما الأهداف في رثاء المدن لدى الشعراء؟

كيف عبر الشعراء عن عواطفهم عند رثاء المدن المدمرة؟

منهجية البحث

تتبع الورقة البحثية منهج التاريخي الوصفي لدراسة النصوص الرثائية والإحاطة بالظروف التاريخية لدراسة المدن المنكوبة.

مفهوم الرثاء عند القدماء

"رثا" كما جاء في لسان العرب من معاني الألم والضعف والوجع والذي قد يصيب جسم الإنسان، عند قولنا رثا فلاناً فلان أي بكاه بعد الموت، والمدح بعد الموت هو رثاء الميت وتعدد محاسنه⁽¹⁾. المعنى الاصطلاحي لكلمة الرثاء لدى النقاد القدماء قد حدده قدامه بن جعفر (ت326هـ) حيث جعل قصائد الرثاء مديحا لهالك، حيث يقول: "ليس بين المراثية والمدحة فصل، إلا أن يذكر باللفظ ما يدل على أنه قيل لهالك، لاستخدامه: كان، تولى، قضى، نحبه، حيث يعتبر تأبين الميت يمثل ما يمدح به في حياته"⁽²⁾. وهذا التعريف يجعلها ترتبط بقصائد المدح. ابن رشيق القيرواني (456هـ) يذهب مذهب قدامه بإدخال الرثاء داخل المديح حيث قال: "وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت، مثل: "كان" وما يشاكل مثل هذه العبارات"⁽³⁾.

كان العرب منذ العصر الجاهلي يرثون موتاهم حيث يقفون على قبورهم ويثنوا على خصالهم وقد كان يسهم بهذا الفن كل من النساء والرجال، بل النساء كنا أكثر حظاً، إذ كنّ يقمن بندب الميت لأيام عديدة، بل في بعض الأحيان يمتد قيامهن لسنوات عديدة، البعض منهن يحلقن شعورهن، يلطمن خدودهن بأيدهن وبالجلود أحياناً، يقمن بمجالس القبيلة وعلى القبور، خاصة بالمواسم المهمة مثل موسم عكاظ⁽⁴⁾. طبيعا المرأة تفوق الرجل في الرثاء لأنه لها حساً أدق وأرق شعوراً، حيث أن حياة الرجل كانت في العصر الجاهلي قائمة على القتل والبطولة وسفك الدماء، لذا لم يكونوا قادرين على العقود للبكاء لكن نجد أشعار للرجال يندبون وينوحون فيها على الموتى⁽⁵⁾.

نرى الدكتور حسين جمعة يضع تصورا لمفهوم الرثاء، ومفهومه مناسب مع طبيعة الحدث الرثائي، فيخلص بأن قصيدة الرثاء هي: "كلام أدبي فني رفيع موزون، يعبر فيه عن الواقع النفسي والاجتماعي، والفكري، والحضاري بحالات الضعف الكبرى بكاء، وندب وتأبين، وعزاء"⁽⁶⁾.

إلى جانب رثاء الأهل والأصدقاء والإخوان، هناك نوع آخر هو رثاء العام حيث قيل عنه رثاء السادة والملوك والشخصيات الهامة، التي لها مكانة مرموقة بالمجتمع⁽⁷⁾. يأتي أيضا رثاء من نوع آخر هو رثاء

الأماكن المهمة مثل المدن والقصور وغيرها، لذا نجد الشعراء القدامى وضعوا له حيزاً كبيراً له بل البعض استخراج منها العبر والعظات بما أن الدنيا زائلة والبكاء عليها جزء لا يتجزأ من صفات الإنسان، حيث تلك الأماكن لها مكانة مهمة في قلبه يذكرها بـماضيه العريق⁸.

إذا تجاوز الرثاء حد اللوعة والبكاء يصل لدرجة التأمل في حقيقة الموت والحياة، لذا فرثاء هو العزاء، "الصبر ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت، وأن يرضى من فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر"⁽⁹⁾. استمر التقليد في قول الرثاء، والتوكؤ على أساليب ومعانيه، حيث ظلت الصورة الرثائية على النموذج الجاهلي طيلة العصور الأدبية باختلاف يسير في الشكل والمضمون فمثلاً جوهر الرثاء اختلف قليلاً في عصر الإسلامي، والرثاء ظل قائماً على الحزن والندب بغزارة من المدح، فالرثائي هو من يبكي فقيده حيث لا يطلب أجر المدح، لذا فاعتبرت من أشرف الأشعار التي قيلت، لأن قائلها يقول من قلبه ونفسه تحترق على فقدان المرثي.

لذا الحديث عن الرثاء يكون الحديث في موضوع الموت والانتفاء، ومن ممارسة فعل الإلغاء على الحياة، بكلا البعدين المادي والمعنوي، لكن في العصر الحديث نرى الرثاء أصبح محملاً بالرغبة في تجاوز الموت للحياة. والمرثية الحديثة تتميز بأنها أصبحت أكثر واقعية وخالية من المبالغة في التصوير، وهي نراها متجاوزة من الموت الإنساني للموت الحياة، وهي تصور المعاناة الاجتماعية المعاصرة، ونرى الشعراء المعاصرين في العصر الحديث تتلون قصيدة الرثاء عندهم بالنزاعات السياسية والوطنية وهي اخرجت شعر الرثاء من البكاء والنواح والندب للشعر حيث يتجر على ألسنة الشعراء شعر يظهر عواطفهم ويتغنوا بأحلام أمتهم غناء حماسياً رائعاً⁽¹⁰⁾.

شاكر النابلسي يقارن بين الرثاء القديم والحديث عبر رثاء الخنساء لأخيها صخر، ورثاء فدوى طوقان لأخيها إبراهيم. فيجد بأن الخنساء تركز عند رثائها لأخيها صخر على فضائله وصفاته بدون أن تظهر نمو العضوي للقصيدة، وتجاوز النوح لرسم تموجات نفسها الحزينة، في حين فدوى طوقان تذكر بعده المادي إلى اكتناه أسرار الموت حيث استطاعت رصد دقائق نفسها المغمية بالحزن وتتنقل من جزء للكل بانسيابية واضحة حيث تربط وفاة وحزن ومأساة أخيها مع مأساة وحزن الوطن المسلوب⁽¹¹⁾.

أنواع الرثاء: 1. الندب: هو البكاء والنواح على شخص ميت بعبارات شجية، وكلمات محزنة تصدع لها القلوب الحزينة والقاسية، وتدمع العيون الجامدة، حيث يكون ويصيحون مع النحيب والنشيج ويسكبون الدموع على الميت⁽¹²⁾. والندب هو وسيلة للتعبير بما يشعر به من الآلام وأحزان لأجل تخفيف الأوجاع، والندب منقسم لقسمين، ندب الأقارب والأهل ومن ثم ندب البلدان وهو ما يحدث بسبب وألم لفقدان إنسان أو مكان.

أ. ندب الأقارب والأهل: هو أقدم أنواع الندب وحصلت المرأة أكبر قسط ونصيب في هذا المجال، حيث كانت تندب أباه وأهلها وإخوتها وأكبر مثال الخنساء، حيث نراها تندب أخاها معاوية، حيث أقامت مأتما ضخماً للندب والنواح وذكرت فيه آثار أخاها صخرأ حيث أشعل موت أخاها صخر لهيب النار بقلبيها.

ب. ندب الدول والبلدن: في عصر بني أمية سقطت كثير من الدول وأشرققت الدولة العباسية وسرعان ما طمع الحكام والأطراف الأخرى في احتلالها وأخذ العرب يستولون على العرش حتى بدأ التصدع يظهر جلياً. حيث بكاء الشعراء على بنو أمية التي سقطت وكان لها أهمية في قلوبهم.

ج. التأبين: من أنواع الرثاء المتمثل في إعداد الخصال والمحاسن للشخصية المتوفية وهو تعبير عن حزن الجماعة لفقيدهم تعبيراً منهم على الحزن، وهو تعاطف اجتماعي إنساني يستعمله المؤمن. في الأصل كان تأبين على الحي ثم اقتصر استخدامه على الميتين حيث كان العرب في الجاهلية يقفون على قبور الموتى فيذكرون مناقبهم ويذكروا ويعدّدوا فضائلهم. تشتهر فيه الخنساء حين تذكر خصائل صخر ومعاوية وأشعارها كانت ملئية بالحزن عليهم.

د. العزاء: وهو يقصر على كارثة الموت حيث نجد سنة الكون يولد الشخص ويموت كأن الناس راحلون وكلهم يموتون ويصابون بفقدان عزيز لهم وفيه نرى الخنساء تقول⁽¹³⁾:

لولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولا وباكية تنوح ليوم نحسي

وبذا نرى العزاء هو الدعوة للتحلي بالصبر على الراحل، بهذا راينا الرثاء تنوع إلى "الندب" الأقوى نوع فيه ثم الأقل منه هو "التأبين" حيث انه يميل للمدح و "النواح" تسرد فيه الفضائل الحسنة للميت والدعوة للصبر على فقدانه. وكان للرثاء قيمة رفيعة ضمن أغراض الشعر العربي، لكونه مرتبط بالمعاناة ووقع تجربة فقدان النفس الإنسانية، وما تحدثه فيها من توليد للمعاني المبتكرة والصور البديعة. ويمعن مفهوم الشعراء القدماء لقصيدة الرثاء حيث أنها تمثل الصفات المادية للمرثي، ووضع القوالب الجاهزة للقصيدة المرثية، حيث يجعل القصيدة ترتبط بالقدرة على استحضار الفضائل الخلقية، والتشبيهات المادية بدون الاقتراب من جوهر المرثية القائمة على الاستثارة لدى النفس وكوامنها. كثر من النصوص الشعرية التي قيلت في العصر الجاهلي تكشف بأن البكاء كان تقليداً فنياً، وله قيمة معنوية أكثر من القيمة المادية⁽¹⁴⁾.

العامل الزمني نراه السبب في تطور المرثية الحديثة، حيث صاغ الشعراء صراخهم مع الزمن بقالب وجودي، الذي يحمل الحاضر لاستشراف المستقبل بشقّ العومل المجهولة، كثير من القدماء جعلوا الرثاء جزءاً من المديح، حيث نرى الدكتور عز الدين وإسماعيل يردد الفكرة بقوله: "الرثاء فن شعري يلتقي في كثير مع فن المدح"⁽¹⁵⁾.

رثاء المدن عبر العصور

عاطفة حب الوطن قد وضعها الله في قلب البشر حيث انها متأصلة في الإنسان، حيث نرى بأنه قرن حب الوطن والبعد عنها كأنه مغادرة الإنسان لوطنه وروحه كما جاء في القرآن: "ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل..."⁽¹⁶⁾. حيث جمع سبحانه وتعالى ما بين الخروج من الدار وقتل النفس مثلها مثل مفارقة الروح للجسد، لانجد شيء يؤلم الإنسان أكثر من قتل نفسه لكن مفارقة الديار والأوطان هي تكون أكثر أذى ومشقة على النفس البشرية، حيث رأينا

سوى الله في الآية بين قتل النفس ومفارقة الديار، لذا فعملية القتل مقترنة بعملية الإخراج حيث الإنسان في كلاهما يشق عليه¹⁷. بالإضافة لذلك فنرى بأنه جمع بين مفارقة الديار والأبناء: حيث بني هارون قالوا لنبيهم حين غلبه العدو عليهم: أبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ورد القوم عليه بقولهم: "ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا"¹⁸، حيث نرى بأنهم قدموا الديار على الأبناء ومن هنا يتضح بأن حب الديار عندهم مثل حب الأبناء. حتى الصحابة عندما هاجروا من مكة للمدينة أصيبوا بالحمى لأجل مفارقتهم وطنهم فنرى ورد أشعار على ألسنتهم يذكر فيها الأماكن والأسواق التي كانت بمكة،

العصر الجاهلي

فكان في هذا النوع من الرثاء الشعراء في الماضي يرثون الحصون والقصور والممالك التي تم سحقها على يد الزمن حيث أصبحت ذكرى بذاكرة التاريخ، عرف الرجل الجاهلي المآثم التي يجمع فيه النساء لأجل الندب والصباح على الميت، واستمر حتى مجئ الإسلام، حيث أباحه الرسول مع تحريم التقاليد المرتبطة به مثل حلق الرؤوس وغيرها. النساء بالجاهلية كنا يلفن الأشعار حيث يندبن موتاهم وقتلاهم، بمرور الزمن تجزأت صناعة الندب مع صناعة الشعر حيث نرى ظهور المحترفين الذين يعولون على المآثم بمقابل. ونرى الأعشى يتذكر مساكن قوم ثمود أصبحت بيوت الثعالب حيث قبل ذلك كانت عامرة بالقوم فيقول:

يا من يرى ريمان أمسى خاويا خرب كعابه
أمسى الثعالب أهله مد للذين هم مآبه

نرى ذو جدن الحميري عندما يذكر حمير، وما حصل من الذل معها بعد العز والرفاهية، كيف انهدمت حصون اليمن وانخربت أرض اليمن والحصون لم يكن لها مشابه في المدن الأخرى.

هونك ليس يد الدمع ما فاتا لا تهلكي أسفا ذكر من ماتا
أبعد بينون لا عين ولا أثر وبعد سلحين يبني الناس

أبياتا (19)

ابن الذئبة الثقفي يقول عندما يتذكر حمير وما نزل السودان بهم وما أصابوهم

لعمرك ما للنفى من مفر مع الموت يلحقه والكبر
أبعد قبائل من حمير أتواذا صباح بذات العر

نرى رثاء الشاعر في الدولة الحميرية حيث يؤكد فيها الشاعر على النهاية الحتمية بتكرار ذكر الموت وأسلوب القسم، حيث يرسم صورة رهيبة كأنهم سعالى يزحفون على البحر والبر معاً ويبين الأعشى تحول القصر العظيم لأطلال التي أصبحت مسكن الثعالب، وأصبحت أعاليه ساقلة حيث قال²⁰:

يا من يرى ريمان أمسى خاويا خرباً كعابه
أمسى الثعالب أهله بعد الذين هم مآبه

أغلب قصائد الرثاء بالعصر الجاهلي كانت تدور حول الفرس والروم حيث لانجد ذكر القبائل العربية إلا نادراً السبب الفرق الشاسع بين حضارة العرب والأمم الأخرى، واللون الذي كان يغلب على تلك القصائد لون الحكمة والدعاء للاتعاظ وأخذ العبرة لما أصاب القوم من التدمير السبب يرجع لرثاء الاطلال لابناء عشيرته.

رثاء المدن في عصر صدر الإسلام

عصر النبي لانجد فيه رثاء للمدن لأنه عصر لم تهدم به البيوت حيث الحروب كانت تجرى في الصحراء وكذلك عصر الخلفاء الراشدين فلا نجد الدمار والخراب في عصرهم، عدا قصيدة غزو خالد بن الوليد للجيرة وقضائه على مسيلمة الكذاب، حيث ناقش مع بقبيله الشاعر الذي اتفق معه خالد على دفع الجزية ومع دخول المسلمين الحيرة حزن الشاعر وقال الأبيات التالية²¹:

تحاماه فوارس كل حي	مخافة ضيعم عالي الزئير
تقسمنا القبائل من معدٍ	كأنا بعض أجزاء الجرور

الأبيات التي قالها مليئة بالحزن والأسى على ما أصاب القرية ويتذكر فيها المصائب التي حلت به وبداره وقريته.

رثاء المدن بالعصر الأموي

مر فن الرثاء من العصر الجاهلي للأموي بعدة مراحل ليصل ناضحا إلى الأمويين حيث أضاف ثروة لغوية فرادة وتجديداً، وقد انكمش الشعر وأغراضه قبلهم، لكن الرثاء ازداد وتوسع، حيث طرق شعراء الأمويين أبواباً كثيرة بعضها جديد وبعضها كان على النمط المعتاد، وقد بقي الرثاء على وضعه في العصر الجاهلي والإسلامي، لكن الأمويين أضافوا عليه إضافات عديدة حيث جعلوه غرضاً مستقلاً بحد ذاته، حيث انتشرت في العصر الأموي ظاهرة التكسب عن طريق الشعر، لذا فنجد الرثاء أيضاً بدأ بفقدان الصديق والإخلاص وقوة حرارة المشاعر، لأنه أصبح رثاء لكسب المال، ما عدا في رثاء الابن أو الزوجة أو الحبيب، كان الشاعر أبو عباس من الذين رثوا بني أمية لأنه أشد الولاء لهم حيث كان يحبهم حباً جماً، فنرى أبو عباس ينشد قائلاً⁽²²⁾:

حين غابت بنو أمية عنه	والبهاليل من بني عبد شمس
خطب على المنابر فرسان	عليها وقال له خير خرس

نرى الشاعر الأبي أبو عدوى يبكي الدولة قائلاً⁽²³⁾:

تقول أمامة لملا رأت	نشورى عن المضجع الأنفس
وظه نومي على مضجع	لدى هجعة الأعين النعس

رثاء المدن بالعصر العباسي

أن بكاء المدن الزاهرة حين تغزوها القوات كانت ظاهرة ادت لزرف دموع الشعراء لذا نرى الشعراء يكون المدن العامرة والزاهرة حين تلحقها مصائب وفتن المدمرة حين تذهب الثورات برونقها، بعد نهاية الأمويين وضياع ملكهم تولى الأمر العباسيين وبدؤا بغارات وفتح البلدان، ونجد الشعراء يذرفون

الدموع على بغداد وفتنها في وقت الأمين والمأمون عام 197هـ، الوقت الذي حصرها طاهر بن الحسين الذي كان قائد جيش المأمون، حيث "كانت بغداد أول مدينة تدمرت وحرقت في بداية الدولة العباسية عندما اشتد الخلاف بين المأمون والأمين، ودمرتها الخرسانة بمجانيقها ونسفها"⁽²⁴⁾. ونرى عمر بن عبد الملك يبكيها لما أصابها من أذى قائلًا⁽²⁵⁾:

منذ أصابك بالعين بالعين ألم تكوني زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم وكان قريهم زينا من الزين
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم والدهر يصدع ما بين الفريقين

ونرى الشاعر "الخريمي" يبكي بغداد، وأشاعر "إسحاق بن حسان الفارسي" يقول قصيدة طويلة، يصف فيها ما حل بمدينة بغداد في نبرة متأسفة ولوعة صادقة، حيث نراه يصور الفتنة تصويراً دقيقاً، حتى كأنها تبدو لك كأنك تراه أمام العين، حيث نراه يصور التخريب والدمار والقتل والذعر، الذي تفشي آنذاك في مدينة بغداد وطرقها. يقول ابن قتيبة⁽²⁶⁾:

بؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها
رق بها الدين وأستخف بذي الفضل وعز لرجال فاجرها

وبذا فإن غرض الرثاء كان في بدايات صنع المشاركة "ولو ألقينا نظرة على سفح التاريخ نجد الشعر يسجل تصوير النكبات التي أصابت العالم الإسلامي في طرفيه المشرق والمغرب، حيث رثى أبو العباس دولة بنى أمية ورثى الآخرون دولة العباسيين عندما دخل المغول بغداد، ودولة الطوليين وغيرها من الدول"⁽²⁷⁾. وقد قال الشعراء القصائد يرثون بها المدن المدمرة خلال الفتنة التي حلت بعد حادثة عين جالوت حيث انهزم الجيش الإسلامي هزيمة فظيعة في التاريخ²⁸.

نرى في رثاء مدن الأندلس جهاد الشعب وكفاح الأمة لحكم دام لما يزيد عن ثمانية قرون التي وقع بها الكثير من الحوادث الهامة مثل عبور جبل طارق من قبل المسلمين وقد ذاق الشعراء مرارة الأحداث عند سقوط غرناطة لذا فقاموا بتأليف مراثي وبكائيات نرى شعراء المشرق مثل الخزيي (240هـ) يرثي المدن وابن الرومي يرثي البصرة في الوقت الذي أغارت الزنج عليها عام (255هـ). **رثاء المدن في القصيدة الأندلسية**

الموت اعتبر مصيبة كبرى في كافة الأصعدة والعصور نرى الرثاء غرض من أغراض الشعر حيث نال منزلة مرموقة في القصيدة الأندلسية، كان من أجود أنواع الشعر وأصدقها حيث اتجه الشعراء عدة اتجاهات منها رثاء الأهل والأقارب والأمراء والحكام ورثوا المدن والممالك حتى الحيوان والجماد⁽²⁹⁾. هذا اللون من الرثاء مثلها مثل الرثاء القديم حيث عرفه الشعراء ولم يبلغوا فيه شأن المغاربة وشعراء الاندلس، بسبب زوال دولهم وإتباعهم حيث أحزنهم أن يروا مدنها التي رواها عامرة مذهرة تسقط في يد الغزاه، فبكوا بقصائد المدن والطرق، وتميزت القصيدة الرثائية الأندلسية بأنها استخدمت البحور الخفيفة بدون أن تتخلل عن البحر الطويل³⁰.

كتب أبي البقاء الرندي قصيدة نونية ترثي الأندلس بكاملها، حيث تصور ما حل بالأندلس ودمار لمعلمها، وهي تتضمن ستين بيتاً حيث يقول فيها الشاعر³¹:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغربطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

رثاء المدن الأندلسية التي دمرت على يد اعداء المسلمين ولسقوط المدن المهمة كان أثر بالغ بقلوب الجماهير، مثل "قرطبة" و"بريشتر" و"طليطلة" وغيرها، ونستنتج مما سبق بأن غرض الرثاء منذ بداياته قد صنع المشاركة "ولو ألقينا نظرة على سفح التاريخ سنجد سجلاً حافلاً في تصوير النكبات التي حلت بالعالم الإسلامي بجناحية، المشرق والمغرب، لقد رثى أبو العباس الأعشى دولة بني أمية، ورثى آخرون دولة العباسيين عند دخول المغول لبغداد، ودولة الطولبيين وغيرها من الدول"³². ووجد الرثاء منذ القدم لكن بدوره نضجت عبر العصور حتى أن وصل للمشرق والأندلس. من أشهر الشعراء الذين رثوا المدن منهم أبو محمد عبدالله اليحصبي المشتهر بـ"ابن العسال" (ت/487هـ) حيث وصف الحادثة بمشاعرة الحزينة وذكر أسباب انهيار المسلمين بسبب جبن حكامهم، قال في قصيدته³³:

لقد رمان المشركون بأسهم
لم تحط لكن شأنها الإصماء
ماتت قلوب المسلمين برعهم
فحاتنا في حربهم جبناء

مدينة القيروان التي بناها عقبة بن عندما فتح أفريقيا حصلت أوج عزها في أيام ولاية المعز بالله، لكن الفاطميون حاربوها مباشرة انكسر جيش المعز في الحرب كسرة شنيعة عام 444هـ وصور الشعراء هذه النكبة بأسلوب يحزن لها القلب نرى أبو علي الحسن القيرواني يرثي قيروان بقصيدة يصف فيها تفاصيل خرابها والمسجد المدمر بها قائلاً³⁴:

المسجد المعمور جامع عقبة
خرب المعاطن مظلم الأركان

الأسباب التي أدت لنكبات المدن

القصاصد التي قيلت للرثاء بالمدن ودمارها ووقوعها بيد الأعداء المستعمرين وما تبع الدمار من ويلات، فلو عدنا للتاريخ نجد أن لرثاء الممالك الأندلسية النصيب الأوفر من اهتمام الدارسين: "رثاء الممالك البائدة لهو نتيجة للانقلابات السياسية وتطويع الدهر بالدول فوقف الشعراء على أطلالها يندبون عزها الحائل ومجدها الزائل ويتأملون في صروف الأيام التي لا تبقى أحد، فبكى ابن اللبانة على دولة العباديين، وابن عبدون على دولة بني الأفطس، وندب أبو البقاء الرندي حظ الأندلس"⁽³⁵⁾.

نستعرض رثاء أكبر مدينتين عربيتين قد رثاها الشعراء في قصيدتهم

رثاء بغداد

مايصادفنا رثاء المدن نرى الشعراء يرثون مدينة بغداد بعد سقوطها على أيدي التتار عام 656 هجرية، ثم العبت بأهلها وسكانها⁽³⁶⁾. نرى تقي الدين إسماعيل أبي اليس يرثي مدينة بغداد.

لسائل الدمع عن بغداد أخبار
فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا
فما بذاك الحمى والدار ديار

علا الصليب على أعلى منابرهما وقام بالأمر من يحويه زنار
لقد بكا عدة شعراء بغداد بقصائدهم لكثرة الدمار والخراب الذي أصابها حيث محت محاسنها نرى
العتري الوراق يقول³⁷:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم وكان قريهم زينا من الزين
أستودع الله قوما ما ذكرتهم إلا تحدر ماء العين من عيني

بدأت القصيدة بذكر آلام لفقدان الأقارب والأحبة الذين فقدتهم وتتألم روحه التي أصبحت على وشك
أن تزهق ومع ذلك استحقاقه لأجل البكاء لما أصابه من الحزن والإيمان بقضاء الله وقدره. يقول
الشاعر شمس الدين الكوفي في رثاء بغداد³⁸. فيصف الشاعر قصيدته في وصف مدينة بغداد التي
غدرها الزمان وحلت فيها المصائب، القصيدة بدايتها حديث سهل مؤثر في النفوس، تصك سمع
القارئ، حيث لا ينادي أصحابه بالرصانة المفتعلة، النظرة القارئ المتأمل في القصيدة:

أملهها الله ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها
كم قد رأينا من المعاصي ببغداد فهل ذو الجلال غافرها
حلت ببغدا وهي آمنة داهية لم تكن تحاذرها

بعد مرور ثمانين عاماً بعد النكبة التي مرت على مدينة بغداد عام 277هـ هجم الزنج بمدينة البصرة
حيث بعد الأطاحة أقاموا دولة استمرت أربعة عشر عاماً³⁹.

رثاء الأندلس

كما نعلم عاش العرب بالأندلس ثمانية قرون امتدت من فتحها بقيادة طارق بن زياد عام 92هـ حتى
عام 897م العام الذي رحل فيه آخر ملك مسلم منها. كان من الصعب على العرب نسيان كل المدة
التي حكموا فيها الأندلس عندما نعود لكتب التاريخ ونتعمق فيها نجد "أن مساحة الأندلس تقسمت إلى
أثنين وعشرين دولة، فتفتت الأندلس لدرجة لم يعهد قبلها في التاريخ أي عنصر وكان الهبوط على أشد
ما يكون"⁴⁰. بسبب الإنهيار الذي وقع بالأندلس "قد أدركت طائفة المراثي السياسية شهرة واسعة في
الأدب الأندلسي وقد قيلت هذه المراثي بمناسبات زوال الدول"⁽⁴¹⁾. وقد تعددت القصائد والمقطوعات
الأندلسية في الرثاء، وأغلبها كان يسيطر عليها آثار الصديق وكانت تصدر من العواطف الصادقة ومليئة
بالحرقة والفراق، والمشاعر الممزقة، ومعانها كانت مكررة حيث ينقصها الكثير من الصديق والإخلاص.

والتقسيم بعهد الملوك الطوائف كان التقسيم لسبع مناطق رئيسية أهمها:
بنو عباد: الذين كانوا منتمين للعرب من بني لخم، بقوا بمنطقة اشبيلية.

بنو زيري: هم كان من البربر عاشوا بمنطقة غرناطة

بنو جهور: زعيمهم أبو الحزم عاشوا بمنطقة قرطبة.

بنو الأفطس: تأسسوا في إمارة بطليوس الواقعة بالثغر الأدنى

بنو ذي النون: عاشوا بمنطقة طليطلة

بنو عامر: أولاد بني عامر، أخذوا مسكن لهم في بلنسية⁽⁴²⁾.

رثاء اشبيلية

لقد استعصت المدينة عند غزو النصارى ببسالة وضراوة حيث نرى قلعة المعتضد بن عباد وعيرين ابنه المعتمد، وظلت المدين تقاوم بضراوة لمدة ثمانية عشر شهراً رغم الحصار الرهيب، لكن عند نفوذ الزاد والصلاح والغذاء استسلمت عام 645هـ مقابل حقن دماء سكانها وطلبوا مهلة شهر لتسوية أمورهم وإخلاء منازلهم⁽⁴³⁾. عندها بدء الشعراء بكتابة المأساة، ووصف هجوم النصارى على إشبيلية، ورسوموا المشاهد الحزينة لما أصاب المسلمين من المصائب يوم الحشر⁽⁴⁴⁾. يقول ابن هارون⁽⁴⁵⁾:

فالجبر بالمنشآت إرتج من دعر والبر بالمرهفات إرتاع فاككتما
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم جسر من الفلك لا تشكوبه السأما
فكم أسارى غدت في القيد موثقة تشكوا من النذل إقداما لها حطماً

شعراء المشرق أشتهروا برثاء المدن منهم الخزيي (240هـ) وابن الرومي حيث رثاء مدينة البصرة في الوقت الذي أغارت عليهم الزنج عام (255هـ). رثاء المدن كان منتشر في كل محنة تمر بأي مدينة، وكل من الطبري وابن الأثير وروا عن المحن التي تعرضت لها المدن وكتبوا عنها في كتب الأدب حيث كتبوا عن سقوط المدن العربية. القول جملة بأن الرثاء المدن يغلب عليه الأسى العميق والتماس العطف، والحزن والأسف على قيام الدول ثم زوالها على يد الاعداء، ومن ثم إرجاع نكبتهم لفعل الدهر مرة وبعض الأحيان لأنفسهم، وبالتصوير لما أصاب المسلمين والإسلام في زوال المدن الإسلامية العظيمة التي كانت عقرهم وبالتالي ما أصابهم نتيجة الزوال من ذل وهوان وتحطيم قلوبهم التي كانت متعلقة بديارهم الجميلة التي تم إجلأهم عنها، وأصابهم التشرد ومن ثم الدعوة لمن هزمهم للذود عن دينهم واخذ الحرمات. وتشرد الناس والأحباب لذا فجميع قصائد رثاء المدن سيطر عليها لون الحزن والألم. نجد القصائد التي قيلت في رثاء المدن كلها تظهر أحوال الاضطراب لدى الشعراء والقلق النفسي، لديهم حيث كانوا يشاقون لمدهم ويتذكرون خيراتها ويتصورون وطنهم كانت القصائد تتميز بأسلوب سهل يظهر ألم الشعراء.

الخاتمة والنتائج

الرثاء من أغراض الشعر العربي القديم وظهر عند العرب من العصر الجاهلي، والرثاء ذكر محاسن الميت وإظهار التفجع لفقدانه، ومن أشهر اشعار الرثاء في العصر الجاهلي رثاء الخنساء لأخيها صخرأ، شعر الرثاء يعتبر من أصدق أغراض الشعر حيث تشترك فيه العاطفة الصادقة وتكون المشاعر فيه جياشة، ويعبر فيه الشاعر عن حزنه وتفجعه من الحادثة، يتميز الرثاء عن الأغراض الأخرى بأنه يكون نتيجة للواقع المرير الذي أصاب المدن العزيزة للقلوب، ونرى الشعراء فيه يبكون مدهم ومساكلهم بأسلوب يحزن له القلب. توصلت الدراسة إلى:

ان رثاء المدن فن ظهر وترعرع في العصر العباسي مع أنه كان معروف الرثاء عامة قبل ذلك. الصور الرثائية نراه لم تتغير طيلة العصور الأدبية المختلفة.

ان رثاء المدن يعتبر بانه يصدر من شعور صادق يكاد يخلو من التكلف والصناعة.
الرثاء فن يدرس الحوادث والنكبات التي أصابت المدن وهو يختلف عن رثاء الأهل الذي يكون فيه
النياح والبكاء.
توصلت الدراسة إلى ان القصد الرثاء جميعها تخلو من الاصوات القوية الصارخة وتدعو لتحرير
الارض والوطن.

References

- ¹ Al-Fayrouz Abadi, *alqamus almuhiti*, Article Ratha, (Part I, publish, Dar Al-Jeel, Beirut), I6
- ² Qudama Bin Jaafar, *Criticism of Poetry*, (Tahqiq by Abdel Moneim Khafaji, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya Beirut), I18
- ³ Ban Rashiqa Al-Qayrawani, *Al-Umda fi Beauties of Poetry and its Literature*, (Thaqiq by Muhammad Qirqzan, Volume 2, Ed-I, Dar Al-Marefa, Beirut, 1988), 805
- ⁴ Shawki Deif, *Al ratha fi share al arabi*, (Dar Al-Maaref, Cairo, 1956, 4th edition), 8
- ⁵ The Days of the Arabs: These are the wars that took place in the time of ignorance and that lasted for many days and years, such as the war of Al-Basous, Dahes and Al-Ghabra, and others "the days of the Arabs before Islam".
- ⁶ Hussein Juma'a, *Ratha Poem Roots and Phases*, (Ist Edition, Dar Al-Numeir, Damascus, 1998), 24
- ⁷ Dr. Mahmoud Hassan Abu Naji, *Ratha in Arabic Poetry or Heartbreaks*, (Life Library publications, Beirut, Lebanon, Ed.I, 1402 AH), 96
- ⁸ Ibid, P277
- ⁹ Ibid-86
- ¹⁰ Abd al-Rashid Abd al-Aziz, *Poetry of Arab Lamentation and the Awakening of Wills*, 77
- ¹¹ Shaker Al-Nabulsi, *Fadwa Toukan and Contemporary Jordanian Poetry*, (printed by the National House of Printing and Publishing, 1966), 47
- ¹² Shawki Deif, *Lamentation*, (Dar Al-Maaref, 4th floor, Cairo), 12
- ¹³ Al-Khansa Tamader, *Diwan Al-Khansa*, (Edited by Abdul Salam Al-Hofi), 5, 54
- ¹⁴ Al-Mubarrad: *Condolences and Lamentations*, (investigated by Muhammad Al-Dibaji, Publications Edition of the Arabic Language Academy, Damascus, 1976), 271
- ¹⁵ Izz al-Din Ismail, *in Abbasid literature, The Vision and Art*, (Dar Al-Nahsa Al-Arabiya Edition, Cairo, 1975), 364
- ¹⁶ AL-Nisa 4:66
- ¹⁷ Muhammad Metwally Al-Shaarawy, *My thoughts about the Noble Qur'an*, (Akhbar Al-Youm), 2:345
- ¹⁸ Al-Baqarah 2:246
- ¹⁹ Imam al-Tabari, *History of al-Tabari*, (investigated by Abu al-Fadl Ibrahim, Dar al-Maaref, Egypt, I I, part I), 125
- ²⁰ Al-Hamawi, *Mujam Al-Buldan*, (Dar Al-Fikr, Beirut, 1995 AD) 3:114
- ²¹ Embracing Bin Ghaith Al-Biladi, *Geographical Features in the Biography of the Prophet by Ibn Hisham*, (First Edition, 1402 AH, House of Mecca, 1:99, Yaqout Bin Abdullah Al-Hammouri, Lexicon of Countries), 1,2: 99,402

- ²² Abu Faraj, Al-Isfahani, *Al-Aghani*, (Dar Al-Kutub, Cairo, c. 1938 AD, 16th edition), 299-300
- ²³ Shaher Awad Al Kafawin, "*Arabic Poetry in Lamenting Countries and Countries Until the Fall of Andalusia*", (Ph.D. Thesis, Department of Arabic Literature, Umm Al-Qura University), 1984, 64
- ²⁴ Muhammad Rajab al-Bayoumi, *Andalusian literature between influence and influence*, (Dar al-thaqafa for publication, Cairo), 212
- ²⁵ Al-Taher Ahmed Makki, *Andalusian Studies in Literature and History*, (Dar Al-Maaref, 3rd Edition, Cairo, 1987), 201
- ²⁶ Ibn Qutayba, *Poets and Poets*, (investigation by Ahmed Mujamed Shaker, Dar Al-Maaref, 2nd Edition, Egypt), 586
- ²⁷ Munhad Mustafa Bahjat, *Andalusian Literature from the Conquest to the Fall of Granada*, Dar al kutab for publication, Iraq, 1988), 305
- ²⁸ Dr. Abd al-Muti al-Sayyad, *The Mongols in History*, (first edition 1956 AD, Dar al-Maarifa Lebanon), 294
- ²⁹ Ibrahim Mansour Muhammad Al-Yassin, *Lamentation of Wives in Andalusian Poetry*, (The Elegy of the Blind Attalily Model), 4
- ³⁰ Hind Bint Ahmad Al-Othaim, *The Andalusian Epitaph at the Time of the Almoravids and Almohads*, 30-31
- ³¹ Shehab Al-Khafaji, *Rehana Alba and the Flower of the World's Life*, (Dar Al-Maarif Al-Arabiya, 1995 AD), 1:101
- ³² Munjed Mustafa Bahjat, 305
- ³³ Abu al-Qasim Khalaf bin Abd al-Malik, *The Connection in the History of the Imams of Andalusia*, (Dar al-Kitab al-Masry, Cairo-1989), 1:285.
- ³⁴ The Qasida from the Diwan of Ibn Rashiqa Al-Qayrauni, (Compiled and investigated by Dr. Abdel Rahman Yaghi, 1989, House of Culture, Beirut), 212-204.
- ³⁵ Hanna Al-Fakhouri, *History of Arabic Literature*, (Dar Al-Asala, Algeria, 212th Edition in 1987), 97
- ³⁶ Abdul Hakim Radi and others, *Awraq Baghdad*, (The General Authority for Cultural Palaces, Cairo, 2003), 364
- ³⁷ Abi Jaefar Muhamad bin Jarir altabri, *tarikh altabri, tahqiq muhamad 'abu alfadl 'iibrahim, dar almaearifi*, (Ed18, Egypt), 446
- ³⁸ Baghdad built by Abu Jaafar al-Mansur, *the background*, (which he built on the banks of the Tigris River, and has religious shrines)
- ³⁹ Al-Taher Ahmed Makki, *Andalusian Studies*, 202
- ⁴⁰ Ragheb Al-Sarjani, *Qisat Al-andalus min alfath ilaa alsuquta*, (Part I, Iqra Institution for Publishing and Distribution, 1st Edition, Cairo, 2010), 322
- ⁴¹ García Gómez, *Andalusian Shier: (An Examination of Its Development and Characteristics)*, 61
- ⁴² Ragheb Al-Sirjani, *The Story of Al-Andalus*, Part 21, 323
- ⁴³ Mustafa Al-Shaka'a, *Andalusian Adab*, (Its Themes and Arts, 10th Edition, 2000), 529
- ⁴⁴ Fawzi Issa, *Andalusian Poetry in the Era of the Almohads*, (Publisher of Dar Al-Wafa Ladonia Printing and Publishing, Faculty of Arts, Alexandria University, I, 2007), 180
- ⁴⁵ Ibn eadharaa almarakishi, *albayan almaghrib fi 'akhbar al'andalus walmaghrib*, (qism almuahidina, tahqiq muhamad 'iibrahim alkitabi, wa'abd alqadir zamamata, Dar Al-Gharab Al Islami, Beirut, Lebanon, 1985), 381